الحديث الحادي عشر

التوازن بين الدنيا والآخرة

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:

أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكبي، فقال: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابر سبيل». وكان ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا أمسيت؛ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت؛ فلا تنتظر المساء. وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك».

رواه البخاريُّ في كتاب الرِّقاق في صحيحه[١].

ورواه أحمد بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ بثوبي، أو ببعض جسدي، وقال: «يا عبد الله! كن كأنَّك غريب، أو عابر سبيل، واعدد [وفي رواية وَعُدَّ] نفسك من أهل القبُور». رواه أحمد في الزُّهد باللَّفظ نفسه[٢].

ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، وقال: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابر سبيلٍ، وعُدَّ نفسك من أهل القُبور» فقال[٣] لي ابن عمر: إذا أصبحت؛ فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت؛ فلا تحدِّث نفسك بالصَّباح، وخذ من صحَّتك قبل سُقمك، ومن حياتك قبل موتك،

---

(١) البخاريُّ برقم ٦٤١٦.

(٢) المسند ٢/ ٢٤ و٤١.

(٣) القائل هو مجاهد الرَّاوي عن ابن عمر.

فإنَّك لا تدري يا عبد الله! ما اسمك غداً[1].

قال ابن حجرٍ[2]، ونقل ذلك عنه المباركفوري[3]:

[أي: هل يقال له شقيٌّ، أو سعيدٌ، ولم يُرِد اسمه الخاصَّ به، فإنَّه لا يتغيرَّ. وقيل: المراد: هل يقال: هو حيٌّ، أو ميِّتٌ. انتهى] ثمَّ قال المباركفوري: [قلت: والظَّاهر عندي هو المعنى الثَّاني، والله أعلم][4].

ورواه ابن ماجه في كتاب الزُّهد من سننه[5] واقتصر على المرفوع كما رواه التِّرمذيُّ، ولم يذكر كلام ابن عمر، رضي الله عنه. ورواه ابن حبَّان في صحيحه، وفي «روضة العقلاء»[6].

شرح المفردات:

ـ أخذ بالشَّيء، وأخذ الشَّيء: بمعنىً واحدٍ.

ـ المَنْكِبُ: مجتمع رأس الكتف، ورأس العضد، ويكون المَنْكِبُ للإنسان وغيره. والأخذ بالمنكب يدلُّ على مزيد اهتمامٍ من المتكلِّم حتَّى يُصغي المخاطب إلى النُّصح الموجَّه له.

ـ الدُّنيا: وصفٌ لموصوفٍ يُذكرُ أحياناً، ويُحْذَفُ أحياناً أخرىٰ، وهو (الحياة) ووصفت الحياة بالدُّنيا؛ لدنوِّها، وحقارتها.

وجمع الدُّنيا: دُنَا، ومذكَّرها: الأدنى.

ـ كأنَّ: حرف تشبيه، وهي حرفٌ مركَّبٌ عند بعض العلماء، وبسيط عند بعض.

---

(١) التِّرمذيُّ برقم ٢٣٣٣، وتحفة الأحوذي ٣/ ٢٦٥ وانظر صحيح الترمذي للألباني ٢/ برقم ١٩٠٢.
(٢) فتح الباري ١١/ ٢٣٥.
(٣) تحفة الأحوذيّ ٣/ ٢٦٥.
(٤) تحفة الأحوذيّ ٣/ ٢٦٥.
(٥) ابن ماجه برقم ٤١١٤.
(٦) صحيح ابن حبان (الإحسان) ٢/ ٤٧١ و«روضة العقلاء» صفحة ١٢٧.

فأمَّا القائلون بتركيبها ؛ فيقولون: أصل (كأنَّ زيداً أسد): إنَّ زيداً كأسدٍ ، قدم حرف التَّشبيه اهتماماً به ، ففتحت همزة إنَّ لدُخول الجارِّ.

وأمَّا القائلون بأنَّها بسيطةٌ فقد قالوا: إنَّ القول بتركيبها فيه تعسُّفٌ ، وهي تدلُّ على التَّشبيه غالباً ، وعلى التَّقريب والشَّكِّ أحياناً ، ولا سيما إذا كان خبرها مشتقّاً ، نحو قولهم: كأنَّك فاهمٌ.

ـ أمسيت: دخلت في المساء ، وهي تامَّةٌ؛ لأنَّ النَّاقصة معناها اتِّصاف المسند إليه بالمسند في المساء.

ـ أصبحت: دخلت في الصَّباح ، وهي تامَّة.

ـ خذ من صحَّتك لمرضك: أي: اغتنم وقت صحَّتك ، واجتهد فيه ؛ لينفعك عند حلول مرضٍ يمنعُك من العمل.

ـ خذ من حياتك لموتك: أي: اغتنم مدَّة حياتك في عظيم الأمور ؛ لتكون ذخراً لك عند موتك ؛ حيث ينقطع العمل بالموت.

* * *

كلمةٌ موجزةٌ بليغةٌ من جوامع كلمه ﷺ ، وهي نصيحةٌ غاليةٌ من المعلِّم الأعظم ﷺ ، وقد اجتمع في هذه الكلمة صحَّةُ الفكرة ، وعمقُ المعنى ، وروعةُ الأسلوب ، وجمالُ الصُّورة: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيلٍ».

إنَّها موعظةٌ ما أشدَّ حاجة الإنسان إليها في كلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ مكانٍ. . . ولا سيَّما في هذا العصر المادِّي ؛ الَّذي طغت فيه النَّزعة المادِّيَّة على كثيرٍ من القيم ، والمُثل. . . إنَّ سبب ما يعانيه البشر من الشَّقاء هو التَّكالبُ على الدُّنيا ، ونسيانُ الآخرة ، وإنَّ سبب تخلُّف العمل الإسلاميِّ هو التعلُّق بالدُّنيا ، وملذَّاتها ، وإيثارُها على الآخرة.

هذا والحياة الدُّنيا تمرُّ بسرعةٍ هائلةٍ. . توضِّحها الصُّورةُ الرَّائعةُ الَّتي نجدها

في هذا المثل القرآنيِّ الرَّفيع ، قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] واسألوا ـ إن شئتم ـ المعمَّرين كيف رأوا الحياة ؛ يحدِّثوكم : أنَّ الثَّمانين سنةً مرَّت مروراً سريعاً ، ما كانوا يتصوَّرونه ؛ وهم في عهد الصِّبا ، والشَّباب .

وبعد أن يغادر المرء هذه الحياة الدُّنيا إلى الآخرة ؛ حيث يجد ما قدَّم من عمل محضراً . . وهناك السَّعادة ، أو الشَّقاء . . . من أجل ذلك بيَّن القرآن قيمة الحياة الدُّنيا في آياتٍ كثيرةٍ ، وكذلك فإنَّ رسول الله ﷺ بيَّن لأمَّته قيمة هذه الدُّنيا(١) .

والحديث الَّذي نودُّ دراسته يحذِّر من الرُّكون إلى الدُّنيا ، ويدعو إلى الإفادة منها ، فهي مزرعة الآخرة .

إنَّ طول الأمل صفةٌ تجدها عند أكثر النَّاس . . . فإذا استكانوا لها ، وسعوا في إطارها ، ونسوا حقيقة الحياة الدُّنيا ، انحرفوا انحرافاً خطيراً يُودي بهم ، ويوردهم المهالك .

هذا الحديث يعالج موضوع الخضوع للآمال العريضة ؛ الَّتي لا نهاية لها ، وذلك بتوضيح الحال الَّتي ينبغي أن يكون عليها المسلم بالنِّسبة إلى الدُّنيا ، فلا يجوز أن يتعلَّق بها ولا أن يجعلها أكبر همِّه ، ولا مبلغ علمه ، ولا أن يقصِر نفسه عليها . . . بل عليه أن يكون فيها كالغريب ، أو كعابر السَّبيل .

إنَّ الإسلام أقام توازناً بين الدُّنيا ، والآخرة ، وأنشأ ترابطاً وثيقاً بينهما ، بحيث تكون الدُّنيا مزرعةَ الآخرة ، فلا يجوز للمسلم أن ينصرف إلى الحياة الدُّنيا انصرافاً كلِّيّاً . . ولاأن تستغرقه مشكلاتُها ، وتُرَّهاتُها .

ولا يجوز له أن يُعرض عنها إعراضاً تامّاً يوقعه في الفاقة ، والعوز ، وحاجة النَّاس . وهذا التَّوازن جليٌّ في الآية الكريمة الَّتي وردت في أثناء قصَّة قارون

---

(١) انظر رسالتنا «من أسباب تخلُّف العمل الإسلاميِّ» وانظر كتب الزُّهد .

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

[ذمَّ رجلٌ الدُّنيا عند عليٍّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ فقال سيِّدنا عليٌّ: «الدُّنيا دار صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوَّد منها»][(١)].

أوصىٰ رسولُ الله ﷺ عبد الله بن عمر، فقال له: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابر سبيلٍ».

وتمثَّل ابن عمر هذا القول الحكيم، وكان يوصي من لقي قائلاً: إذا أمسيت؛ فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت؛ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحَّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. وقد بيَّنَّا: أنَّ القرآن الكريم حدَّد علاقة الإنسان بالدُّنيا، ووضَّح قيمتها.

إنَّ هدف المسلم في هذه الحياة أن يصل إلى رضوان الله.. فعليه أن يستفيد من حياته في الدُّنيا ليضمن لنفسه النَّجاة في الآخرة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾... نعم لا تنس نصيبك من الدُّنيا بحيث يُبلِغُك مقصودَك من الحياة، وهو: رضوانُ الله سبحانه وتعالى. وليكن شأنُك فيها شأن الغريب في بلدٍ ليست بلدَه.

فالإسلام دينٌ، ودنيا.. يرعى روح المرء، وجسمه.. ويدعه يحقِّق أشواقه، ورغباته بتوازنٍ رائعٍ منسجمٍ تمام الانسجام.

لقد اهتمَّ الإسلام بركني الحياة: المادَّة، والرُّوح.. ولم يَجُرْ على واحدٍ منهما لحساب الآخر، ونظرتُه إلى الدُّنيا، والآخرة تسير في هذا السَّبيل السَّويِّ.

ونحن نرى أنَّ المبادئ والعقائد؛ الَّتي تقوم على جانبٍ واحدٍ منهما، وتتجاهل الرُّكن الآخر، وتهمله مبادئ مُخْفِقَةٌ، لا تقوىٰ على التَّلاؤم مع

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ ١١٨.

الحياة ، وتنهزم في وجدان الإنسان ، ثمَّ تُعْلِنُ إخفاقها في واقع الحياة الملموس.

فالنَّصرانيَّة المُحرَّفة عجَزت عن السَّيطرة على حياة أبنائها؛ لأنَّها لم تأخذ بعين الاعتبار جانبَي الحياة... ولم تستطعْ أن تتقدَّم لحلِّ مشكلات البشر المتجدِّدة ، المعقَّدة ، المتَّصلة بالمادَّة ، والرُّوح معاً... كانت عوراء لا تبصر إلا بعينٍ واحدةٍ ، ولا ترعىٰ إلا جانباً واحداً هو ـ في زعمها ـ جانب الرُّوح.

من أجل ذلك نرى حياة المجتمعات النَّصرانية ـ ولا سيَّما الأوربيَّة ـ أبعد ما تكون عن الرُّوحانيَّات الَّتي تدَّعيها ديانتُهم ، ولقد شهدت النَّهضة الحديثة في أوربة حملةً عنيفةً على الكنيسة ، قلَّصت نفوذها ، واضطرتها أن تلزم زوايا المعابد ، والهياكل... ونأتْ بالحكم ، والعلم عن ميدانها... وبذلك وقعت تلك الجفوة الهائلة بين الحياة ، والدِّين.

وكذلك فإنَّ الشُّيوعيَّة والمبادئ المادِّيَّة الهدَّامة الَّتي لا تؤمن إلا بالمادَّة ، وتهمل جانب الرُّوح ، والمشاعر محكومٌ عليها بالدَّمار ، ومن هنا نستطيع أن نعلِّل تناقض هؤلاء الشُّيوعيِّين والمادِّيِّين عندما اضطروا أن يتنازلوا عن قسطٍ كبيرٍ من معتقداتهم ، كما نشهد ذلك في الآونة الأخيرة في عددٍ من البلدان الاشتراكيَّة ، ثمَّ أعلنت هذه المبادئ عن إفلاسها ، وتساقطت البلدان الَّتي تخضع لها واحدةً في إثر أخرىٰ.

إذاً فالحياة الإنسانيَّة قائمةٌ على شعبتين ، هما: الرُّوح ، والمادَّة ، وهي بمجموعها مقدِّمة إلى حياةٍ أخرىٰ أعظمَ ، وأهمَّ ، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] وقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] وقد عرض القرآن الكريم كثيراً

من حقائق تلك الحياة الآخرة. . . عرضها من خلال تقريراتٍ ربَّانيَّةٍ ، ومشاهد وصفيَّةٍ تأخذ بالألباب[1].

وكثير من الغافلين الضَّالِّين كانوا يحسَبون : أنَّ الحياة عبثٌ ، ولم يستطيعوا أن يرتقوا إلى معرفة : أنَّ بعد هذه الحياة حياةً أخرىٰ ؛ بسبب الانحراف عن دعوة الله ، قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] . وقال سبحانه : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] . وقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ ـ ٧٩] .

إنَّ هؤلاء المنكرين للحياة الآخرة كانوا يُعانون من خيبة الأمل المريرة لضيق حياتهم عن أن تتَّسع لآمالهم الكبيرة. . . بينما دعوة الرُّسل الكرام ـ صلَّىٰ الله عليهم وسلم ـ تهيب بهم : أنَّ بعد هذه الحياة حياةً أكبر ، فيها الخلود الأبديُّ ، وأنَّ عليهم أن يجعلوا هذه الحياة الدَّنيَّة منهم مزرعةً لتلك. . . وأنَّ عليهم أن يستغلُّوا كلَّ لحظةٍ من أوقاتهم ، فيصرفوها في طاعة الله عزَّ وجلَّ ؛ ليجنوا الثَّمرات الطَّيِّبة الشَّهيَّة يوم القيامة ، ولا يكون ذلك إلا عندما يتحرَّرون مِن العبودية للدُّنيا .

ولا يعني ذلك أن ينقطعوا عن الحياة الدُّنيا ، وأن يستغنُوا عنها. . . بل ينبغي أن يكون شأنُهم فيها شأنَ الغريب ، وعابر السَّبيل ؛ الذي يُنفق كلَّ ساعةٍ ، أو دقيقة من وقته من أجل غده ، ولا يكون واقعه المؤقَّت مستولياً على فكره كلِّه شاغلاً إيَّاه عن التَّفكير في مستقرِّه في دار إقامته ، وعن مستقبله هنا. . . إنَّه يهتمُّ بشؤونه الآنيَّة بقدر ما يُبلغه هذا الاهتمامُ غايتَه .

إنَّ تصوُّر اليوم الآخر ، والعمل على تسخير الحياة الدُّنيا للفوز في ذاك اليوم العصيب ؛ سببٌ لقيام الحياة الفاضلة الخيِّرة .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب القرطبيِّ «التَّذكرة» وكتاب ابن كثير «النِّهاية» وكتاب سيِّد قطب «مشاهد القيامة» .

وفي الحديث تقريرٌ لحقيقةٍ هامَّةٍ كشف عنها ابن عمر ، رضي الله عنه ، وهي: أنَّ رأس مال المسلم وقتُه. فلا يجوز أن يهدُرَه ، ولا أن يسوِّف حتَّى لا يكون المُفلس في تجارته ، الخاسر في حياته... إنَّ عليه أن يستغلَّ وقته في الحياة الدُّنيا في طاعة الله ، وعبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. وأن يكون مستعدّاً للقاء الله ، مستفيداً من صحَّته ، لا يرجئ عمل الخير ، ولا يضيِّع فرصة أتيحت له للعمل ، فالصِّحَّة والفراغ نعمتان من أجَلِّ نِعَم الله على عباده ، يجب أن يسخِّرَهما المسلم العاقل فيما يُرضي الله تعالى . فكن يا عبد الله! على حذِر من أن يسبقك الموتُ ، قبل أن تضمن لنفسك المستقبل الآمن الرَّغيد في الحياة الأبديَّة في الآخرة ، أو يقعُد بك المرض ، فيحول بينك وبين ما كنت قادراً عليه من العمل الصَّالح في أيام صحَّتك ، ولا تؤجِّل العمل ، فما تدري متى يكون الأجل؟

يقول عبد الله بن المعتزِّ: تناولِ الفرصة المُمكنة ، ولا تنتظر غداً ، فَمَنْ لغدٍ مِنْ حادثٍ بكفيل[1].

ويقول عبدُ الله بن المُبارك:

اغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ زُلْفَىٰ إِلَىٰ اللّـ ــه إذَا كُنْتَ رِيْحَاً مُسْتَرِيحَا
وَإِذَا مَا هَمَمْتَ بِالنُّطْقِ فِي البا طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَه تَسْبِيْحَا[2]

وقيل لرجل عبد القيس: أَوْصِ. قال: احذروا (سوف)[1].

وعن الحسن ، قال: إيَّاك والتَّسويف ، فإنَّك بيومك ، ولست بغدك ، فإنْ يكنْ غدٌ لك؛ فكن في غدٍ كما كنت في اليوم ، وإنْ لم يكن لك غدٌ ؛ لم تندم على ما فرَّطت في اليوم[3].

لا بُدَّ أن نقف أمام هذا التَّشبيه الرَّائع الموفَّق لنتأمَّل مطابقته لمقتضىٰ الحال:

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٨ .
(٢) اقتضاء العلم العمل ص ١٠٦ ، وفي سير أعلام النُّبلاء ٨/ ٣٦٨ وفيه: إذا كنت فارغاً.
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ١١٤ .

إنَّ هذا التَّشبيه المُحكم الَّذي يُطالعنا في هذا الحديث يُعَبِّرُ عن المقصود صريحاً ، فقد قال ﷺ: «كن في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيلٍ».

فإنَّ الغريب قليلُ الانبساط إلى النَّاس ، شديدُ الاستيحاش منهم ، يواجه مَنْ لا يعرفُهم ، ولا يعرفونه ، وَمَنْ يتكلَّمون بلغةٍ ، أو لهجةٍ لا يعرف دقائقها ، فلا يقدِّرونه قدره ، ولا يستطيع هو أن يختار مَنْ يكون أهلاً لوصاله ، ووِدِّه ، فهو أبداً خائفٌ يترقَّب ، شديد الاكتئاب ، لا يرىٰ الحسن حسناً ، ويشعر بنقصٍ في نفسه عنهم ، كما قالت أعرابية : إذا كنت في غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذُّلِّ[1] . ولله درُّ الزَّركليِّ ، الَّذي يقول :

العَيْنُ بَعْدَ فِرَاقِهَا الوَطَنَا ... لَا سَاكِنَاً أَلِفَتْ وَلَا سَكَنَا
رَيَّانَةٌ بِالدَّمْعِ أَقْلَقَهَا ... أَلَّا تُحِسَّ كَرَىً وَلَا وَسَنَا
كَانَتْ تَرَىٰ فِي كُلِّ سانحةٍ ... حُسْنَاً ، وَبَاتَتْ لَا تَرَىٰ حَسَنَا
إِنَّ الغَرِيْبَ مُعَذَّبٌ أَبَداً ... إِنْ حَلَّ لَمْ يَنْعَمْ وَإِنْ ظَعَنَا

إنَّ الإنسان في وطنه يستكثر من المتاع ، والأثاث من أسرَّةٍ ، وأرائك ، وسُجَّادٍ ، وتُحَفٍ ، ويبني البيوت ، ويقتني العقارات ، والبساتين ، ويشتري الأنعام ، والخيل المسوَّمة ، والسَّيارات ، ويستكثر من الملابس ، وأدوات المنزل .

أمَّا الغريب عندما يحلُّ في بلدٍ غير بلده ؛ فإنَّه لا يفعل من ذلك شيئاً . . . إنَّ كلَّ همِّه أن يُنهي عملَه ؛ ليعود إلى بلده . وأمَّا عابر السَّبيل ؛ فإنَّ همَّه الأوَّل هو قطع الطَّريق ، ومجاوزتُه للوصول إلى بلدته ، ولا يستطيع أن يتمَّ رحلته إلا بالجدِّ ، والاهتمام ، والصَّبر على المصاعب ، والمتاعب ، وبالتَّخفيف من الأثقال ، لا يحمل معه إلا ما لا بُدَّ له منه ، معه زادُه وراحلتُه .

وربَّما نام في ظلِّ شجرةٍ في الطريق ؛ إن أعياه التَّعب ، ثمَّ يواصل سعيه حتَّى يبلغ بُغيته مِنْ قَصْدِهِ ، لا يتعلَّق بشيءٍ غير ما هو فيه .

طلب النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث أن يكون المؤمن في الدُّنيا كالغريب ، أو

---

(١) ديوان المعاني ٢/ ١٨٩ .

عابر السَّبيل ، وذلك إشارةٌ منه إلى أنَّ الأكمل في حقِّ المؤمن إيثارُ الزُّهد في الدُّنيا وأخذ البُلغة منها ، والكفاف.

فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر ممَّا يبلغه غاية سفره ؛ فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدُّنيا إلى أكثر من سدِّ حاجاته ، وقضاء ضروراته ، فهو لا يركَن إلى الدُّنيا ، ولا يتَّخذها وطناً ، ولا يحدِّث نفسه بالبقاء فيها ، ولا يتعلَّق منها إلا بما يتعلَّق به الغريب في غير وطنه.

إنَّ على المؤمن أن يجعل إقامته في الدُّنيا ليتزوَّد منها بالطَّاعات ، الَّتي تحقِّق له السَّعادة في دار المقامة في الآخرة.

و«أو» في قوله: (كأنَّك غريبٌ ، أو عابر سبيلٍ) ليست للشَّكِّ ، ولا للتَّخيير ، ولا للإباحة ، وإنَّما هي بمعنى: (بل) ، ففي الكلام نوعٌ من التَّرقِّي؛ لأنَّ تعلُّقات عابر السَّبيل أقلُّ من تعلُّقات الغريب المقيم. فقد شبَّه النَّاسك السَّالك بالغريب ؛ الَّذي ليس له مسكنٌ يسكنُه ، ويؤويه ، ثمَّ ترقَّى ، وأضرب عنه إلى عابر السَّبيل ؛ لأنَّ الغريب قد يسكن في بلد الغربة ، بخلاف عابر السَّبيل القاصد لبلدٍ شاسعٍ وبينهما أوديةٌ مرديةٌ ، ومفاوز مهلكةٌ ، ووحوشٌ مفترسةٌ ، وقطَّاع طرقٍ مجرمون. . . ومن كان كذلك فإنَّ من شأنه ألا يقيم لحظةً ، ولا يستقرَّ لمحةً في مكانٍ بعينه. . بل هو دائم السَّير إلى بلد الإقامة ، ومن ثمَّ عقَّب بقوله في رواية من روايات الحديث: «وعُدَّ نفسك في أهل القبور».

وأمَّا قول ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ فيعني: أن الإنسان في هذه الحياة لا يبقىٰ على حالٍ واحدةٍ ، وأنَّه في عمره لا يخلو عن صحَّةٍ ؛ ومرضٍ ، فإذا كنت صحيحاً ؛ فسر سير القَصْد ، وزدْ عليه بقدر قوَّتك ما دامت فيك قوَّةٌ ، بحيث يكون ما بك من تلك الزِّيادة قائماً مقام ما لعلَّه يفوت حالة المرض ، والضَّعف. . إذاً فاشتغل في صحَّتك بالطَّاعة بحيث لو حصل تقصيرٌ في المرض لانْجَبَر بذلك. . أي: فاعمل ما تلقىٰ نفعه بعد موتك ، وبادرْ أيَّام صحَّتك بالعمل الصَّالح ، فإنَّ المرض قد يطرأ ، فيمنعك من العمل . وهذا المعنى

الَّذي قرره ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ ورد في حديثٍ مرفوعٍ أخرجه الحاكم[1] عن ابن عباسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجلٍ؛ وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هَرَمِكَ، وصحَّتك قبل سَقَمِك، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفراغَك قبل شُغْلِكَ، وحياتَك قبل موتك».

إنَّ الاغترار بالدُّنيا غفلةٌ بالغةٌ، يدلُّنا على هذا النَّظرُ المتأمِّلُ في واقعها، ومعرفةُ حال الَّذين ركنوا إليها، واغترُّوا بزينتها، ومباهجها، والاعتبار بحال هؤلاء الَّذين نعاصرهم ممَّن جعلوا الدُّنيا أكبر همِّهم ومبلغ عِلْمِهم.

وهذا موضوعٌ نبَّه عليه الحكماء شعراً، ونثراً.. ولن أستطيع أنْ أوردَ كلَّ ما وصل إليه علمي في ذلك، وما فاتني أكثر، ويكفيني أن أشير إلى أنَّ شاعراً مُفْلِقاً وهو أبو العتاهية عالج هذا الموضوع، واستغرقت معالجتُه معظمَ ديوانه، يذكِّر بقيمة الدُّنيا، ويبيِّن حقيقتها، ويذكر حال السَّابقين الَّذين كانوا ساعين وراءها، ويُبرز أهمِّيَّة الآخرة.

يقول أبو العتاهية[2]:

هَلْ تَرَى الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ بَصِيرٍ … إنَّمَا الدُّنْيَا تُحَاكِي السَّرَابَا
إنَّمَا الدُّنْيَا كَفَيْءٍ تَوَلَّىٰ … أوْ كَمَا عَايَنْتَ مِنْهُ الضَّبَابَا
إنَّمَا الدُّنْيَا بَلاَءٌ وَكَدٌّ … وَاكْتِئَابٌ قَدْ يَسُوقُ اكْتِئَابَا
مَا اسْتَطَابَ العَيْشَ فِيهَا حَلِيمٌ … لاَ وَلاَ دَامَ لَهُ مَا اسْتَطَابَا
أَبَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ كُلِّ حيٍّ … آخِرَ الأيَّامِ إلاَّ ذَهَابَا
مَا أرَىٰ الدُّنْيَا عَلَىٰ كُلِّ حيٍّ … نَالَهَا إلاَّ أَذىً وَعَذَابَا

ويقول[3]:

أَصْبَحْتِ يَا دَارَ الأَذَىٰ … وَصَفَاكِ مُمْتَلِئٌ قَذَىٰ
أَيْنَ الَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ … قَطَعُوا الحَيَاةَ تَلَذُّذَا

(١) انظر المستدرك ٤/ ٣٠٦ في الفتح ١١/ ٢٣٢.
(٢) ديوان أبي العتاهيَّة: ٣٩ ـ ٤٠.
(٣) ديوان أبي العتاهيَّة: ١٣٥.

دَرَجُوا غَدَاةَ رَمَاهُمْ ... رَيْبُ الزَّمَانِ فَأَنْفَذا
سَنَصِيْرُ أَيْضاً مِثْلَهُمْ ... عَمَّا قَلِيْلٍ هَكَذا

ويقول أبو البقاء الرَّنديُّ[1]:

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي على أحدٍ ... وَلَا يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانُ
أَيْنَ المُلوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُم أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ فِي إِرَمٍ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَه فِي الفُرْسِ سَاسَانُ
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُون مِنْ ذَهَبٍ ... وَأَيْنَ عَادٌ وَشَدَّادٌ وَقَحْطَانُ
أَتَىٰ عَلَىٰ الكُلِّ أمرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوا فَكَأَنَّ القَوْمَ مَا كَانُوا

ويقول المقريُّ[2]:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُو ... ظَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَهْ
أَعْمَىٰ وَأَعْشَىٰ ثُمَّ ذُو ... بَصَرٍ وَزَرْقَاءُ اليَمَامَهْ
فَالْعَيْشُ فِي الدُّنْيَا الدَّنِيَّة ... غَيْرُ مَرْجُوِّ الإدَامَهْ
مَنْ أَرْضَعَتْهُ ثُدِيَّها ... فِي سُرْعَةٍ تُبْدِي فِطَامَهْ
وَإِذَا نَظَرْتَ فَأَيْنَ مَنْ ... مَنَعَتْه أَوْ مَنَحتْ مَرَامَهْ
وَمَنِ الَّذِي وَهَبَتْهُ وَصْلاً ... ثُمَّ لَمْ يَخْشَ انْصِرَامَهْ
وَمَنْ الَّذِي مَدَّتْ لَهُ ... حَبْلاً فَلَمْ يَخَفِ انْفِصَامَهْ
أَيْنَ الَّذِيْنَ تفَيَّؤوا ... ظِلَّ السِّيَادَةِ والزَّعَامَهْ
أَيْنَ المُلوك ذَوُو الرِّيَاسَةِ ... وَالسِّيَاسَةِ وَالصَّرَامَهْ
أَيْنَ الأكَاسِرُ وَالقَيَاصِرَةُ ... المُجَلُّونَ الغَمَامَهْ
أَيْنَ الَّذِي الهَرمان مِنْ ... بنيانه الحَاكِي اعْتِزَامَهْ
بَلْ أيْنَ أَرْبَابُ العُلوم ... أُولُو التَّصَدُّرِ وَالإِمَامَهْ
وَذَوُو الوَزَارَةِ والحِجَا ... بَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعَلَامَهْ

---

(١) نفح الطِّيب ٦/ ٢٣٢، وانظر ترجمة الرَّنديِّ في «نهاية الأندلس» لمحمد عبد الله عنان ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٢) نفح الطيب: ١/ ٢٣.

والعُمْـــرُ مِثْــلُ الضَّيــــفِ أَوْ كَـــالطَّيْـــفِ لَيْـــسَ لَـــهُ إِقَـــامَـــهْ
وَالْمَـــوْتُ حَتْـــمٌ ثُـــمَّ بَعْـــــدَ الْمَـــوْتِ أَهْـــوَالُ القِيَـــامَـــهْ
وَالنَّـــاسُ مَجْـــزِيُّـــونَ عَـــنْ أَعْمَـــالِ مَيْـــلٍ وَاسْتِقَـــامَـــهْ
فَـــذَوُو السَّعَـــادَةِ يَضْحَكُـــو نَ وَغَيْـــرُهُـــمْ يَبْكِـــي نَـــدَامَـــهْ

ويقول عبد المجيد بن عبدون من قصيدة يرثي فيها دولة بني الأفطس[١]:

الـدَّهْـرُ يَفْجَـعُ بَعْـدَ العَيْـنِ بـالأثـرِ فَمَـا البُكـاءُ عَلَـىٰ الأَشْبَـاحِ والصُّـوَرِ
أَنْهَـاكَ أَنْهَـاكَ لَا آلـوكَ مَـوْعِظَـةً عَنْ نَوْمَـةٍ بَيْـنَ نَـابِ اللَّيْـثِ والظُّفُرِ
فَـلَا تغـرَّنْـك مِـنْ دُنْيَـاكَ نَـوْمَتُهَـا فَمَـا صَنْعَـةُ عَيْنَيْهَـا سِـوَى السَّهَـرِ

ويقول الشاعر[٢]:

إنَّ للهِ عِبَـــــــادَاً فُطَنَـــــــا طَلَّقُـوا الـدُّنْيَـا وَخَـافُـوا الفِتَنَـا
نَظَـــرُوا فِيْهَـــا فَلَمَّـــا عَلِمُـــوا أَنَّهـــا لَيْسَـــتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا
جَعَلُـــوهَـــا لُجَّـــةً وَاتَّخَـــذُوا صَـالِـحَ الأَعْمَـالِ فِيْهَـا سُفُنَـا

وبعد ، فإنَّ في الحديث تربيةً روحيَّةً موفَّقةً ، فإنَّ ذكر الموت يحمل المرء على مراجعة نفسه ، والتَّوبةِ إلى الله مِن ذنوبه ، ويرقِّق قلبه ، ويحمله على الازدياد من الطَّاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وقد وردت أحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ .

* فَمِنْ ذلك : حديث أبي هريرةَ ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«أكثِروا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذات» . أي الموت . رواه ابن ماجه ، والتِّرمذيُّ وحسَّنه ، ورواه الطَّبرانيُّ في «الأوسط» بإسنادٍ حسن[٣] .

* ومن ذلك : حديث ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أكثروا ذِكْرَ

---

(١) دول الطَّوائف لمحمَّد عبد الله عنان ص ٣٥٧ .
(٢) مقدِّمة رياض الصَّالحين .
(٣) التِّرمذيُّ برقم ٢٣٠٧ ، وابن ماجه برقم ٤٢٥٨ ، وانظر «التَّرغيب والتَّرهيب» ٤/ ٧٠ .

هاذِمِ اللَّذات ـ يعني: الموت ـ فإنَّه ما كان في كثيرٍ إلاَّ قلَّلَه، ولا قليلٍ إلا جَزَّأه». رواه الطَّبرانيُّ بإسنادٍ حسن[1].

إنَّ ذكر الموت من صاحب القلب الحاضر؛ يحمله على مراجعة حساباته، ووزنِ أعماله، والرُّجوع إلى الحقِّ.

إنَّ ذكر الموت، وما بعده من حسابٍ، وجنَّةٍ، ونارٍ يزجر المرء عن مقارفة الحرام، والإثم، ويحثُّه على الاستكثار من الخير.

كتب رجلٌ إلى صالح بن عبد القدُّوس يسأله:

المَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ النَّـاسِ دَاخِلُـهُ فَلَيْتَ شِعْرِي! بَعْدَ البَابِ ما الدَّارُ؟

فأجابه بقوله:

الـدَّارُ جَنَّـةُ عَـدْنٍ إنْ عَمِلْـتَ بِمَـا يُـرْضِـي الإلٰـهَ وَإنْ فَرَّطْـتَ فـالنَّـارُ
فَهُمَـا مَحَـلاَّنِ، مَا لِلنَّـاسِ غَيْـرُهُمَـا فانْـظُر لِنَـفْسِكَ مَاذَا أَنْتَ مُخْتَارُ[2]

ويُروىٰ عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياء».

قال: قُلنا: يا نبيَّ الله! إنَّـا لنستحيي؛ والحمد لله!

قال: «ليس ذلك، ولكنَّ الاستحياءَ مِنَ الله حقَّ الحياء أَنْ تَحفظ الرَّأس وما وعىٰ، وتَحفظ البَطْنَ وما حَوَىٰ، ولْتَذْكُرَ الموت والبِلىٰ، وَمَنْ أراد الآخرة؛ ترك زينة الدُّنيا، فَمَنْ فَعَلَ ذلك؛ فقد اسْتَحْيَا من الله حقَّ الحياء».

---

(١) التَّرغيب والتَّرهيب ٤/ ٧٠ وورد هذا الحديث في بعض كتب الفقه كما يأتي: «فما ذُكِر في كثيرٍ إلا قلَّله، ولا في قليلٍ إلا كثَّره». وقال ابن عقيلٍ في شرحه: [معناه: متى ذُكر في قليلِ الرِّزق استكثره الإنسان، لاستقلال ما بقي من عمره، ومتى ذُكِرَ في كثيرٍ قلَّله لأنَّ كثير الدُّنيا إذا علم انقطاعه بالموت قلَّ عنده] انظر «مطالب أولي النُّهى» ١/ ٨٢٨.

(٢) أدب الدُّنيا والدين ص ١١٥.

رواه التِّرمذيُّ ، وقال: حديثٌ غريبٌ. إنَّما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصَّباح بن محمَّد[1].

أقول: إنَّ مَنْ يذكر الموت ، والبِلى ، ويعلم ما بعدهما ليستحيي مِنَ الله أن يراه مقترفاً للمحرَّمات ، أو مضيِّعاً للواجبات.

وإحساس المرء برحيله عن هذه الدُّنيا يجعل حياته إيجابيةً منتجةً ، ولا سيَّما إنْ كان مؤمناً: أنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة.

* ومن ذلك: حديث عبد الله بن مسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«الجنَّة أقرب إلى أحدكم مِنْ شراك نَعْلِه ، والنَّار مثلُ ذلك». رواه البخاريُّ[2]. ما أقرب المصيرَ الكريم ، والمصيرَ الذَّميمَ ، فليكن العاقلُ على حذرٍ.

* ومن ذلك: حديث سعد بن أبي وقَّاصٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال:

ـ يا رسول الله! أوصني.

ـ قال: «عليك بالإياس ممَّا في أيدي النَّاس ، وإيَّاك والطَّمعَ ، فإنَّه الفقرُ الحاضرُ ، وصلِّ صلاتك ؛ وأنت مودِّعٌ ، وإيَّاك وما يُعْتَذَرُ منه».

رواه الحاكم ، والبيهقيُّ في «الزُّهد» وقال الحاكم ـ واللَّفظ له ـ: صحيحُ الإسناد. ورواه الطَّبرانيُّ من حديث ابن عمر بلفظٍ مقاربٍ[3].

ولكن لا ينبغي أن يتمنَّى المرء الموت.

فعن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ: إمَّا مُحسناً ، فلعلَّه يزداد ، وإمَّا مسيئاً ؛ فلعلَّه يستعتب». رواه البخاريُّ ، واللَّفظ

---

(١) الترمذي برقم ٢٤٥٨. وانظر صحيح التِّرمذي للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٠٠٠ ، وقال: حسنٌ ، وانظر «التَّرغيب والترهيب» ٤/ ٧١ ـ ٧٢.

(٢) البخاريُّ برقم ٦٤٨٨.

(٣) المستدرك ٤/ ٣٢٦ وانظر «التَّرغيب والتَّرهيب» ٤/ ٧٤.

له. ورواه مسلمٌ بلفظ: «لا يتمنَّيَنَّ أحدكم الموتَ، ولا يَدْعُ به؛ إنَّه إذا مات؛ انقطع عمله، وإنَّه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيراً»[1].

وعن أمِّ الفضل -رضي الله عنها-: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل على العبَّاس وهو يشتكي، فتمنَّى الموت، فقال: «يا عباسُ عم رسول الله ﷺ! لا تتمنَّ الموت: إنْ كنت مُحسناً؛ تزداد إحساناً إلى إحسانك خيرٌ لك. وإن كنت مسيئاً؛ فإن تُؤَخَّر؛ تستعتب من إساءتك خيرٌ لك. لا تتمنَّ الموت». رواه أحمد[2]، والحاكم، وقال: صحيحٌ على شرطهما.

* * *

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٢٣٥، ومسلمٌ برقم ٢٦٨٢ وفي طبعة إستانبول ٨/ ٦٥، وانظر فتح الباري ١٣/ ٢٢٠.

(٢) أحمد ٦/ ٣٣٩ والمستدرك ١/ ٣٣٩.